الفكر القومي أمام مستقبله

بقلم مطاع صفدي

لم نزل ، كلما وضعتنا الاحداث تلقاء احراج التفكير ، نشعر ان مشكلة الفكر القومي ليست سوى فعالية عالية للحدث القومي ذاته . وانها بالتالي لاتحيا الا بحياه هذا الحدث ، ولا تقيم ذرواتها الا بعنف الثورة القومية التي تجتاح الواقع العربي اليومي ، من حين الى اخر . غير ان الحدث القومي ، ان كان ينتر ثورته بين فواصل تاريخيه من نضج التحرر السياسي ، فان الفكر القومي بحاجه الى ان يكون هو نفسه ثورية مستمرة . فهو وان كان يتغذى من الاحداث العامة ، الا ان له استقلاله الخاص ، ولولا هذا الاستقلال لما سمي فكرا . وانما اعتبر من جملة الاصداء اللاحقة على الحدث ، في مستوى ذهني ، لاتحكمه ولا تقيمه ، بل تنبثق بانبثاقته ، وتزول بزواله ، وهو بذلك لن يكون باكثر من تلك المقالات الصحفية العابرة ، او التعليقات السياسية ، والتوجيهات القومية ، التي ترافق الحدث ،لترفع من التوتر الذهني لدى الجمهور ، الى درجة تدمجه في البيئة النضالية ، وتصنع منه احدالعوامل المساعدة على اذكاء صميميتها .

والحق انه علينا ، قبل المضي في هذا الحديث ، ان نحدد تماما ماذا نعني بهذا التعبير : الفكر القومي .

لقد سيطرت على عقول جيلنا جملة اراء حول طبيعة الفكر القومي ، لاتخرج في مخططها العام عن المخطط السياسي . وجعلتنا نربط باستمرار بين مظاهر العمل السياسي اليومي وبين منظومة من الافكار ، تتلخص في جملة اهداف عن التحرر السياسي . ثم مالبثنا ان اردفنا هذه الاهداف السياسية ، ببعض الاهداف الاجتماعية ، كفكرة عن الاشتراكية ، واخرى عن الديمقراطية . وما لبثنا في طور ثالث ، ان صعدنا ، او حاولنا ان نصعد بهذا التفكير الى صعيد فلسفي ، يحيط افكارنا الاولى الطفلة تلك ، بهالة من المنطقية ، الغريبة ، على جوهرها الاساسي. ومع ذلك ، فلقد بقينا في هذه الاطوار الثلاثة ، نحيا على أمنية ان يكون لنا فكر قومي ما ، دون أن نحظى فعلا بمضمون شامل وموجود ، لهذا اللفظ ذي الايقاع الجليل في نفوسنا .

ولنفحص الان خصائص هذه الاطوار الثلاثة ، التي مر فيها الفكر القومي ، الطور السياسي ، فهو ليس بطور بالمعنى الصحيح ، لانه سوف يظل ملازما لكل طور آخر يتلوه . وسوف يبقى كذلك المحك الواقعي لكل مضمون آخر يلحق به . ولهذا فان مشكلة التحقق السياسي بكل موقف فكري ، لابد ان تلازم كل فعالية ذهنية ، ان ارادت لنفسها ان تؤثر في مجال جماهيري واقعي . ولا بد ايضا من أن تكون المعيار الاخير لنوع الحقيقة التي يطرحها هذا الفكر القومي . انه المعيار الذي لايكتفي ان يحكم على منطقيتها الداخلية ، على مدى وضوحها او غموضها، بل سوف يحكم على صلاحيتها من حيث انها يمكن ان توجد وجودا كيانيا ، اي وجودا يشمل حركة العمل السياسي، ويوطرها .

لقد كان المثقفون ، في هذا الطور ، لايشعرون بضروره ايضاح افكار ما ، تتسم بمنطقيه مستقله . بل كانوا يجدون انفسهم امام حاجه عمليه مداهمه ، تتطلب منهم العمل قبل النظر ، وتدفع بهم الى حلبه المعركه ، وهم لايتعون الا بامر واحد ، هو بمثابه الحقيقه المطلقة عندهم ، انه النضال من اجل التحرر المجموعي ، من طغيان مجموعي، يتسم بصفه يوميه ، هي الاستعمار . ولم يكن هذا النضال بحاجه الى فكر ، بقدر ما هو بحاجه الى رد فعل غفل ،شبه غريزي ، يقوم بتحقيقه الوجود الخام للامة ، ضد الخطر المحدق بها . وهو موقف سلبي ، يكاد يكون كله عضويا ، ملتحما بالقاعده الحيوية لوجود الامه .

فلم يكن ثمة مجال، في هذا الطور،لاية مذهبة ايديولوجية اذ لم يطلب العقل النضالي مبررات لذاته ، بقدر ماكان يطلب امكانيات حيوية ، توجه بصورة كيانية نحو متراس العدو ، العدو المشخص في المكان العربي ، بجنده وعتاده، وآلاته المخيفة .

بل ان أي تدخل ايديولوجي في وحدة رد الفعل العضوي هذا ، قد تفسد من محصلة الاثر الواقعي لها . او ان هذا التدخل الايديولوجي سوف يلقى اللامبالاة ، فينحصر وينعزل عن التفاعل مع العمل العام ، ويسير الى الزوال او الخمود . هكذا مثلا نستطيع ان نجد احد الاسباب الاساسية لعقم التدخل الايديولوجي الماركسي خلال فترة طويلة من عمر النضال العربي ، رغم انه يعتبر اقدم هجوم ايديولوجي ، تعرضت له ثوريتنا الحديثة ، منذ دخول الاستعمار الغربي بعد الحرب العالمية الاولى .

وكان الفكر في هذه المرحلة يكتفي ايضا بشيء كثير من التعميمات ، التي لاتقنع بجدارتها المنطقية ، بقدر ماتؤثر بمدى ماتحمل من شحنات حماسية ، توجه الى اوسع جمهور متظاهر . هذه الشحنات التي قلبت فيما بعد الافكار الثورية الى شعارات كيانية . وجعلت تحديد الشعار بمثابة البرهنة على جدارته وحقيقته. وهذا التحديد يتناول اولا تثبيت نقط الهجوم في مخطط المعركة الثورية. انها تنوب عن الاعلام امام الجحافل الزاحفة . فهي اعلام معنوية فردية . ولكنها بفرديتها تلك ، انما تؤلف اصداء لما هو عام خارجي .

وفي هذا المخطط المكاني للمعركة ، ماكان يمكن للقيادات الفكرية ان تترعرع وتنمو وتظهر . بل كانت القيادة لدى المجموع الغفل في حركته الهجومية ، تلقاء الاستفزاز الدائم ، الذي يطرحه وجود المستعمر المتحرك ملء المكان العربي .

كانت مسألة التحدي المادي تطرح ذاتها باستمرار ، على الصعيد اليومي . ولا يكاد يمتص الفكر بعض الاصداء ،حتى

تأخذ بصبره وهدوئه ، انتفاضة كتلية اخرى ، في عالم العمل المباشر .

كان الفكر مهزوما وراء مختزلاته ، وراء هذه الثوابت، التي قولبتها النفسية الجماهيرية ، النفسية الشعارية . فان كل شعار ، في الحقيقة ليس سوى جمرة تكثيف لارادة العمل العام . وهو يتخذ حقيقته دائما ، من مشروعيته القومية ، من مدى خصبه في المجال العملي . وكان الشعار قادرا دائما على تشخيص ذاته . فهو بديل عن القائد والزعيم ، انه القائد الداخلي للفرد المناضل . ولذلك فان كل شاعر ، يستمد ذخيرته الدائمة من الايمان . انه يحيا بالايمان ، وليس بالحقيقة ، والمؤمن لايعرف القدرة على التعليل ، لانه لايسأل ، ولكنه يندفع ، ولا يشك ، ولكنه يتحد باستمرار مع شعاراته .

والحق ان الثورية القومية ، في مرحلتها السلبية السياسية انما تطرح ديانة الشعارات ، وطقوسها الجماهيرية ، من خلال سلسلة ردود الفعل المتكتلة ، او المعركة . والديانة وسط متوتر ، هو وسط المظاهرة ، او المعركة ، والديانة الشعارية ، تتطلب فروسية الايمان ، هذا الايمان الذي هو وليد الحماس الجماهيري في حال الاستفزاز . ومثل هذا الايمان المدعوم بالحماس المتوتر ، يختلف عن الاعتقاد المدعوم بالفكر ، والمنظم ضمن ايديولوجية متماسكة ، تماسكا منطقيا على الاقل . فالايمان ، بهذه الصورة ، هو اصداء الشعارات المباشرة في النفس ، وهو وقودها في الان ذاته. وهو قادر على الانتشار بالعدوى السريعة . كما انه قادر ايضا ، على تكتيل الجماهير ، ودفعها نحو اهداف مادية مباشرة . وهي دائما اهداف سلبية ، بمعنى انها اهداف معبأة بطاقة التهديم والاطاحة للعقبات المستفزة .

وكم استفاد منها المناضلون الاولون ، مادام الهدف مكانيا ، اي مادام مبتكرا شاخصا تلقاء حواس الجمهور الغاضب . لقد كان الايمان الشعاري هو الايديولوجية الابتدائية في العمل الثوري ضد المستعمر . وهو الايمان المطلوب ، كلما تشخصت لنا معركة سافرة ، يبرز فيها العدو بروزه المادي المباشر . وفي هذا الحد الاعلى من التكثيف الانفعالي ، ضمن اطر الشعارية الجماهيرية ،ماكان للفكر القومي سوى دور بلاغي . اي ان القصيدة الحماسية والخطبة الهجومية ، والهتافات الجماعية ، كل هذه الصيغ البلاغية المؤثرة ، كانت تنوب محل النوعية الفكرية الهادئة. وخلال ظروف الثورية الجماهيرية ، كان يولد الشاعر الحماسي ، والخطيب المفوه . وكان الفكر نائيا عن الميدان. فهو لن يستطيع ان يقدم حقيقة حيادية ، مدعومةبالقناعة المنطقية . واما الشاعر والخطيب ، فلهما المكان الاول ، من القيادة الجماهيرية ، خاصة وان كلا منهما لابد ان يدعم الفاظه الضخمة ، والسيكلوجية الايحائية ، بوقائع ثورية من سلوكه . كان شرط الموجه البلاغي ، ان يكون هو نفسه ثائرا عمليا . وان يتصدر المعركة كما يتصدر المنبر .

واما في مرحلة نشوء الاهداف الاجتماعية ، خلف الاهداف السياسية . فالتحرر الكياني الخارجي ، كان يستتبع تحررا ذاتيا داخليا . ولكن التحرر الذاتي ، ما زال يطرح على مستوى مجموعي ، انه يتوجه الى ملء الاهداف السياسية ، التي فقدت حماسة الهجوم المادي المباشر ، بمضمون انقلابي ، بالنسبة للنظم الاجتماعية السائدة .

ان انعكاس الهدفية السياسية نحو الداخل ، سيولد البحث عن مضمون اجتماعي ، تحيط به هالة من التقديس القومي المعتاد . ولا بد للمفكر القومي ، ان ينطلق من هذه الهالة ، نحو اي تحليل للانظمة الاجتماعية فالقيمةالقومية، تظل هي المحرك الاساسي لنفسية الانقلاب الاجتماعي . ولقد عودتنا التجربة الثورية الا ننصب اي شعار اجتماعي حول الاشتراكية او الديمقراطية ، او غيرهما ، الا وهو مشفوع بهالة من الدعوة الى الجهاد القومي . فان عنف الهجوم على الاقطاعية ، وعلى النظم الملكية الاستبدادية ، كان يمتح قوته من الهجوم على الاستعمار ذاته . اذ كان على الفكر القومي ان يربط دائما بين الاقطاعي ، والحاكم الطغياني ، وبين نموذج الخائن والعميل الاستعماري . وما كان يستطيع الفكر القومي ، في هذا الطور ، أن يثير ثورية منظمة ضد الاقطاعية والاستبداد ، باسم تبريرات عقلية خالصة ، توحي بها هذه الانظمة ذاتها . فلا بد اذن من ربطها بالثورية السياسية الموجهة بأحقادها المعتادة ضد هذا الشعار السلبي الكبير : تحطيم الاستعمار ، واعوانه في الداخل .

ان مرحلة الاهداف السياسية المباشرة ، قد طرحت شعارات للتحرر من النظام الاستعماري ، ولكنها لم تفسح مجالا للفكر كيما يستبدل هذا النظام بنظام حكم استقلالي اخر . وهذا ما جعل عهود ما بعد التحرر السياسي ، تتخبط طويلا بين اشكال متناقضة من الحكم ، في كثير من الاقطار العربية المستقلة . وكذلك فان مرحلة الاهداف الاجتماعية ، لم تستطع سوى ان تحول الطاقة السلبية نحو هدم انظمة داخلية قائمة . ولكنها لم تسمح للفكر كذلك ان يضع تصميما بنائيا لانظمة اخرى ايجابية ، تحقق انقلابية صحيحة داخل هذا المجتمع المتحرر من الاستعمار والاقطاع . فلقد نصبت ، في هذه المعركة الداخلية ، شعارات اخرى ، ظاهرها فكري ايجابي ، واما اثرها ، فهو توليد طاقة نضالية ، لها على الصراع السلبي ، القدرة نفسها التي كانت للشعارات السياسية الخارجية. ان رفع شعار الاشتراكية مثلا ، لا يتضمن تحقيق الاشتراكية ذاتها ، بقدر ما يتوجه الى تعبئة الشعور ضد العقبات القائمة في وجه الاشتراكية ، اي الاقطاعية والرجعية . ولذلك ما ان تنهار هذه العقبات ، حتى يفغر فراغ الواقع الاجتماعي التنظيمي فاه، طالبا الايديولوجية المتكاملة ، التي تملك الحلول الجاهزة لتحقيق الجانب البناء من الانقلابية الاجتماعية . ولكن هذه الايديولوجية متعثرة غائمة ، لا يملك الفكر القومي الا بعض لمحات باهتة من مخططها . ومن هنا فلا بد من حدوث الانتكاس الثوري ، او تتعطل الانقلابية الاجتماعية عن تحقيق نظمها المقترحة بدلا من النظم الزائلة ، فلا المنافع الضئيلة التي كانت النظم الزائلة توفرها باقية ، ولا المنافع التي انتظرها رجل الجماهير من شعارات اجتماعية ثورية ، بمائلة امام العيان ، او بواعدة على الاقل بامكان التحقيق في المستقبل القريب . وهذه الهوة السوداء التي تتفرج فجأة بين الشعار كقوة سلبية هادمة ، وبينه كمنطلق لبناء كياني ، هي اخطر باعث على انتكاس النفسية الثورية ، وضياع مردودها النظري والعملي .

وكذلك قل بالنسبة للهدف الديمقراطي من الثورية الاجتماعية . فان طرحه كشعار سياسي ، تلقاء الاستعمار ، لم يكن يعني سوى التحرر الكياني من سلطة الحاكم الاجنبي . واما عندما تحول الى طبيعة الحكم الداخلي ، فانه لم يفعل اكثر من الاطاحة بهرم الحكم الرجعي الفوضوي الذي كان يساعد الاستعمار على

السيطرة الداخلية . ولكنه لم يستطع بالمقابل ان يقدم النظام الايجابي لتحقيق الديمقراطية التلقائية ، أي تلك التي تتخلص من عادة تحطيم القيود الخارجية ، لتتوجه الى حماية حرية الفرد ايجابيا ، بما يساعده على تفتح شخصيته الخاصة ، حسب نموذج جديد مقترح لحضاره عربية .

ولقد واجه الفكر القومي، ولا ريب ، في طور الاهداف الاجتماعية ، اول ازمة تكوين حادة ، ألفت الارتباك في مخططه . فكما تبين لنا فان الفكر القومي لم يكن محملا الا بشحنات ثورية غفل ، ورثهـا عن نضاله الشعاري المباشر ضد الاستعمار . وهو حين توجه الى الداخل الاجتماعي لم يكن يملك الا هذا الشكل الثوري ، الفارغ من اي مضمون ايجابي بنائي . ولهذا فقد عانى من مداهمة المضامين الايديولوجية الجاهزة . بعضها يعتمد على جاذبية علمية ضخمة ، تحمل كل تطبيقات الثورية الحديثة العالمية ، المتجلية في صور الدعوات الشيوعية. وبعضها الاخر جاهز من داخل ، من تراث الامة ذاتها. وله جاذبية افعل وأخطر ، لانه يعتمد على آلية التقليد والانصياع للرموز الايمانية الجماعية، التي تغلفت بطبقات صلدة من عادة التسليم والخوف ، والضمور الانساني. فالفكر الاجتماعي ، ضمن هالة الثورية القومية، كان يمكن كل لحظة ان يجهض محصلته الخاصة ، التي ليست بعد سوى رموز وبذور غامضة . ومن ثم فان الخطر المزدوج الذي كان يداهم نشوء الايديولوجية العربية بخصوصيتها ، ومنحاها الحضاري الانبعاثي الذاتي ، كان مسلحا بنظمه الفكرية ، وقوالبها المنطقية التاريخية ، وطقوسها الموجهة المتسلطة ، ولقد عانت تجربتنا الثورية، في ميدانها العلمي ، خطر التهجين من قبل ماركسية غوغائية ، كما ان هذه التجربة تعاني الان ايضا خطر التفريغ التقدمي ، امام مداهمة الرجعيات الدينية ، بمضامينها الايجابية المختلفة .

كل ذلك يرجع في الواقع الى ان التجربة الثورية ، ما زالت خالية فعلا من أي مراقبة فكرية جادة ، تحررها من حاجتها المستمرة الى التحريض الجماعي السلبي ، وتفتحها نحو معقولية شاملة . فتعمل هذه المعقولية بدورها ، على قلب نظامها المنطقي ، الى قيم وجودية حياتية ، تصح اسسا انبعاثية جديدة لحضارة عربية مقترحة على العربي الانسان .

ومن هنا يقوم الطور الفلسفي بدوره المنتظر . فالفكر القومي في ماضي تجربته الثورية كان يقتصر على نحت الاهداف من معدن العقبات ذاتها التي كانت تعترض قيام مجرد الوجود والبقاء الخام للكيان القومي ، كان فكرا هدفيا ، يبتكره الواقع النضالي المادي ، وتنفذه الجماهير، ويغذيه الحماس الفدائي ، ويفتقر دائما الى الاعتقاد الايديولوجي ، وان كان يثير في النفوس ايمانا طفليا وانفعاليا . ان تجربة النضال الماضية ، تقدم لنا احداثا جليلة ، ونماذج ثورية مباشرة . ولكنها تصدمنا كذلك بهذا التعثر والارتباك الذي كان يصاحب في كل مرة ، مولد فكر قومي اصيل ، يملك تماسكه الذاتي ، وضمانة صموده امام محاولات التهجين والتفريغ من قبل الايديولوجيات الجاهزة : اليسارية المادية والرجعية الطقسية .

وهذا هو الفكر القومي امام مستقبله .

فما هي الامكانيات التي يعد بها هذا الفكر ، وقد استنفد قصوره الماضي ، وشعر بحاجة التأصيل الذاتي ، المرتبط بتأصيل الامة نفسها في تربة الوجود الانساني المقبول ؟

ان أحدا لا يستطيع ان يتنبأ عن مخلوقات الفكر في مستقبله ، ولكن التجربة القومية الماضية ، والمعطيات الحاضرة ، قد تسمح لنا قليلا ان نضع هذا الفكر امام آماله ذاتها . وكثيرا ما انقلبت الامال الى وقائع تدل عن امكانياتها السابقة ، المتضمنة في الوجدان القومي .

* *

ان المسألة الاولى التي يجب ان يواجهها هذا الفكر القومي ، وهو في حركة تعاليه نحو مستقبله ، هي نوعيه التربة التي سيختارها لبذوره . ولا شك ان احدا لا يمكنه ان ينظر الى اي فكر قومي ، على انه فكر معزول، في مثل هذا العصر الذي نحياه ، حيث تنحل الحضارات الخاصة ، لتنشىء حضارة عالمية غير ذات صفة ، الا صفة الانسان المطلق ، الذي خلقها .

ولكن لنحترس من هذه الاضلولة البراقة . فرغم ان طابع العصر هو التداخل والانفتاح ، والتفاعل السريع في مستويات العلم والوسائل الحضارية ، الا انه من اشد العصور ، في الوقت ذاته ، تميزا بالنوازع الجبارة الملحة بأرقى انتاجات الحضارة المعنوية والمادية . انه يتضمن انغلاقا نحو مراكز لتجمع القوى ، معاكسا لواقع التداخل الظاهر . وهذه القوى ، تسيطر عليها نوايا متصارعة ، قد تبلورت وراء اعنف صور التعصب للمصالح القومية ، التي لم تعد سوى مصالح استغلالية. ومع ذلك فان الفكر الانساني ، الذي ينتشر حول هذه النوازع ، سواء لتبريرها او لدحضها ، هو فكر يمتاز بغنى لانهائي، في شتى ميادين المعرفة والعمل والاعتقاد. ومن التعسف حقا ان نجعل فكرنا القومي يتجاهل هذه التربة العالمية. ولكنه بالمقابل لن يستطيع أن يشق لبذوره امكانيات الحياة والنمو في هذه التربة ، الا اذا خاطب فكرنا الناشىء عقل العالم بلغته . وليست هذه اللغة الا محصلة لعنف التجربة الحضارية التي خاضتها الانسانية من هيراقليط الى (ماركان هيدجر) و (توينبي).

ان كل فكر يتجاهل هذا التراث العالمي ، لن يستطيع ان يقدم الا خبرة صبيانية في مجمع العقول الجبارة . ولكن تبقى مسألة الطريقة التي يمكن ان ينفتح فيها فكر قومي على التراث العالمي ، دون ان يفقد هويته الخاصة. وهذا ما يجعل فئة من مثقفينا يفقدون رؤوسهم ، وهم يدورون مع عجلات الثقافات العالمية المتنوعة المخيفة .

وبالمقابل علينا ان نذكر انه ليس ثمة من ثقافة في العالم، تملك طابعا حياديا ، حتى تلك التي تتناول ثوابت العلم المادي والرياضي . ان المعادلات الرياضية ، والقوانين الفيزيائية ، رغم موضوعيتها المطلقة ، لا تنفصل عن ارومتها القومية ، عن بيئتها الحضارية التي نشأت فيها ، انها نتاج لمحصلة روحية معينة ، تتسم بالروح الفاوستية كما انبثقت منذ قرنين من الزمن في غرب اوروبا .

ومن هنا فأن كل ثقافة اذا ما عزلت عن الكتب والمتاحف والآثار والادوات الصناعية ، انقلبت الى منظومة معيارية من القيم ، الى ايديولوجية حياتية .

ان ثقافات الحضارات من حولنا ، ليست اسيرة مواضيعها . فالفيزياء ليست للمادة ، والرياضيات ليست للبداهة العقلية ، والعلوم الانسانية ليست لموضوع النفس والاجتماع والتاريخ. وانما هي جميعها نبتات ايديولوجية،

تشف عن منظومة معيارية للشعوب التي ابدعتها كحقائق موضوعية ، ولكنها في الوقت ذاته تؤلف معقولية داخليه صامته ، لها ، وتنسج تربية حضارية خاصة بها ، تنشىء اجيالها وانماط سلوكها واعتقادهـا وعلائقها الاقتصـادية والنفسية والتنظيمية ، بحسب دلالاتها التاريخية .

فالفكر العالمي ، هو التربة المفروضة بالنسبـة لبذرة فكرنا القومي . والفكر العالمي يداهمنا ، ليس كمنظومة من المعارف الحيادية ، بل يداهمنا بصور من الايديولوجيات المختلفة المحملة بأبعاد الحضارات وانماط المعيشة المعيارية التي اختارتها لذاتها قبل كل شيء .

ولذلك فان الفكر القومي ، ان كان سوف يفسح مجالا لنمو المخابر والابحاث العلمية ، وظهور الفلسفات والآداب المختلفة ضمنه ، الا انه لا بد ان يحمل منذ البدء ملامـح الوجه الداخلي لحضارتنا ، أي ان يمهد لكل حقيقة فـي ميدانه ، ان تنقل الى قيمة ، وان تكون من مجموع القيم، منظومة ايديولوجية ، تشف عن نوع اختيارنا الشامـل لنوع النموذج الانساني الذي سوف نصنفه ونخلده .

واذا كان هذا الفكر القومي سوف يتصف بقدرته على التحول الى ايديولوجية فان هذا ليس معنـاه انه فكر متمذهب سابقا . انه على العكس ، هو الذي يسمح بتولد المذاهب المختلفة ضمن اشمل تيار له ، في وجدان الامة المبدع . فالطـابع الايديولوجي لا يعني التمذهب بالمعنى الضيق. وانما هو الذي سوف يمنح مشروعية لكل مذهب، باعتباره صورة من صور تحققات الفكر القومي خلال تنوع نشـاطاته ، حسب الظروف البيئوية الروحيـة لتطور الحضارة من داخل .

ولهذا فـان الفكر القومي ليس مطالبا في الحقـل الاجتماعي ان يقدم نموذجا واحدا من التنظيم . انه مثلا قد يوحي بنظم واشتراكيات متنوعة، حسب اشكال الواقع الاقتصادي غير الثابت . فليس كمثل فكرنا القومي هذا بحاجة في المستقبل القريب ، الى التحرر من عادة النحت الشعاري . فالفكر الحقيقي لا يختصره اي شعار . كما ان الحرية لا يستنفد امكانياتها أي نظام حر .

وان مرض الهوس الشعاري ، الذي يعـاني منه فكرنا القومي ، يجاوره مرض اخر ، خطير ايضا ، الا وهو مرض التدين ، لا بالمعنى الالهي ، ولكن التدين الوثني . فاننا ما ان نخلق فكرة ، حتى نحيطها بهالة من الصحة المطلقـة، ومن المشروعية كلها ومن الخلود . وبالتالي تنقلب الـى تراث الثوابت في قبو اللاشعور القومي . ولا تلبث حتى تتحول الى مركز ساحة من التحريم السحري، والتجميد العقيدي . فلنثق بانه ليس ثمة من انتاج للفكر ، يمكن ان يعوض عن الفكر كله . ولنثق ايضا بأن أي ضرب مـن ضروب المعرفة او السلوك والقيمة ، الا ويخضع للشك . فالعقلية الايمانية ، ليست هي عقليـة الابداع والتشوق المستقبلي .

ان المنطق الشعاري ، يستند الى كثافة ايمانية ، والى اتحاد مجموعي ، غفل من اي تمايز شخصي . والحق ان الفكر القومي ، مدعو ، في لحظة من لحظات تغير الايقاع الحضاري ، الى بث اعتقاد جديد ، والى مسح ايمان قديم. ان الاعتقاد هو ما يدعمه الوعي بمبرراته العقلية ، وجدارته الواقعية . ولكن عندما تزول عنه هالة الوعي ، الذي يكفل نجوعه وعدم تخثره ، لا يلبث ان يجمد ، ويصبـح وهو نتاج الحرية ، اكبر معيق للحرية . وبالتالي ينقلب الـى ايمان ، الى نوع من التدين الوثني ، يتغذى من حمـاس الجماهير الغفل ، ويحارب كل معقولية تقدم على النقـد الحقيقي . ان اية امكانية لتطور الفكر القومي ، لا تثبت الا اذا صاحبتها صرامة النقد . فالحرية قبل ان تكون في مستوى التحقق العملي ، فانها في مستوى الفكر ، ليست هي شيئا اخر غير امكانية النقد. حتى لقد يمكن ان يعرف الفكر الملتزم لواقعية التطور الحضاري ، انه فكر معياري، اي لا يمكنه ان ينفصل عن امكانية النقد الذاتي له ، ولكل انتاج آخر يحمل شعار الفكر ، الا وهو الحرية .

* *

لقد اعتمد الفكر القومي ، خلال تجربتنا الثورية ، حتى الان ، على زاد قليل من الايجابية ، وزاد كثير من السلبية اما ايجابيته النادرة ، فهي في محـاولته لتثبيت ابجدية القومية العربية . وكان هـذا التثبيت عملا يدور حول الذهنية الشعارية . كان يستوحي من شعار ، او يشرح شعارا ، او يمهد لشعار آخر . ومثل هذا النشاط كان يولد عملا مفصليا هيكليا . فلو اننا تفحصنا الكتب ، التي تحمل عناوين قومية في السنوات العشر الاخيرة ، لوجدنا ان معظمها ، يريد ان ينافح عن شروط قيام الامة العربية من خلال ادلـة تاريخية ، او مناقشات ضد الافكـار والايديولوجيات المناقضة. وكان لا يخلو بعضها من شطحات شاعرية ، او نزعات مثالية ، او انحرافـات تعصبية او رجعية . هذا الى جانب انها تتفق جميعها ، في موقفهـا الفكري الطفولي . ولقد استطاعت رغم ذلك ان تخلق لدى العربي الجديد ، عفوية الاعتقاد بأصالة قوميته، وضروراتها الاجتماعية والانسانية ، وان تثبت في وجدانه حقائق الانبعاث الاولية، حتى اصبحت بديهيات تؤسس له جدارته بعين ذاته .

وفي هذا الاتجاه ، لا بد ان ينطلق الفكر القومي مـن هذه الابجدية الى انشاء الاطار الفلسفي الشامل ، للعقيدة العربية . هذا هو الوعد الاكبر المنتظر . ولكن لنتفهم ماذا نعني بالاطار الفلسفي للعقيدة العربية .

والحق انه علينا أن نبدل لفظ الاطار الفلسفي بكلمـة اصح ، وهي الرؤيا الفلسفية ، التي سوف تصبح مغزلا اساسيا للعقيدة العربية . ان هذه الرؤيا ستكون بمثابة الرشيم الاول للحضارة المقترحة ، المتولدة عـن حركـة الانبعاث الشمولي للامة العربية .

ولا شك فان احدا من المفكرين لن يكشف هذه الرؤيا . وانما لا بد ان نترك نواة حضارتنا لخصبها الذاتي ، فتعطي لنا كافة الانتاجات في ميادين الفعالية الانسانية . ومن ثم يقوم الفكر القومي بحركة استرجاعية ، يرجع فيهـا حركة هذا الخصب ، ويكشف عـن الوحدة في تنوعها ، وعن التناغم في لا تجانسها . وبذلك يتاح له ان يدرك وحدة البذرة الاولى ، التي انشأت هذا النتاج . ولن تكون هذه البذرة الا الصورة المكثفة في رشيم لمخطط شخصية حضارية متكاملة ، تنبت من مختلف الفعاليات العمليـة والنظرية للامة .

كل ما نستطيع ان نفعله من اجل تحقق هذا الفكر القومي في المستقبل التاريخي للامة، لن يكون في تحديد مضامينه سلفا . كما لن يكون في قلب موحيات هذا الفكر الى قواعد عقيدية جامدة ، تمنع حركته العفوية من ملاحقة خصبها وتجددها . ان ما نستطيع ان نفعله حقا من اجل هذا المستقبل ، هو ان نحرث التربة جيدا ، وان نفتـح اعماقها لغيث عظيم ، اسمه : الحرية .

ولكي نخفف من ايقاع هذه الكلمة السحري في نفوسنا،

فلنقل ان الايديولوجية الاشمل ، والاعظم انفتاحا ، هي تلك التي تسمح لنا بوعي نقدي حاسم ، في كل لحظة ، من تحقق الوعد المستقبلي للانبعاث القومي .

ان كل حقيقة سيكشفها هذا الفكر القومي ، ستكون كذلك محط قيمة لما هو اوسع من الفكر القومي ، للوجدان الانساني . فلا حيادية في علم الذات القومية ، وانماهناك انحياز مطلق الى مقياس المشروعية او عدم المشروعية ، لكل تحقق مستجد في تاريخية التكون الحضاري للامة.

ان الفكر القومي ، عندما ينقلب الى مقياس المشروعية او عدم المشروعية ، سوف يتحول هو ذاته الى ايديولوجية شمولية . وكل ايديولوجية هي وجهة نظر . انها تنطوي على حدس برؤيا ميتافيزيقية ، تظل تحيا في خلفيةالتطور الواقعي لمنجزات المجتمع . والمهم لدى المفكر القومي ، ان يجد العلاقة الايجابية بين هذه المنجزات ، وبين الرؤيا الميتافيزيقية التي يحملها ضمير الامة . من هنا كانت هذه المنجزات مجرد رموز حية لهذه الرؤيا . انها تبرز وحدة الرسالة التي تقترحها الامة على ابنائها .. هذه هي الصلة الرحمانية ، التي كان يبشر بها رواد الفلسفة العربية الانبعاثية ، صلة بين البطل وبين جذره الروحي في اعماق امتـــه .

ان هذه الصلة ، هي التي تستطيع ان تقلب كل انتاج لفكر قومي ملتزم ، الى قيم سلوكية ، معيارية ، ترفع من وجود الامة اليومي ، الى مستوى نموذجي مثالي . ولولا هذه العملية ، لامحى هذا المد الشعوري الوجداني ، الذي يجعل احيانا طابع العمل القومي ، اشبه بالاستشهـــاد الصوفي .

لقد حان الوقت اذن الى ان نحرر عقيدتنا العربية من وثنية الشعارات ، وان نرجع كل امكانية شعار سيولدفي المستقبل ، الى ينبوع التجربة الرحمانية ، التي تجعل كل واقع قومي يشف عن رؤيا شمولية ، لحركة التـاريخ الانبعاثي ، نحو تأكيد رسالته الانسانية . ان عقيدة فـي الحرية ، لا تعني الا عملية شق الدروب دائما ، وليـس طمس هذه الدروب في سبيل درب واحد .

والمستقبل لا يعني ، بالنسبـة للايديولوجية العربية ، تبعثر السواقي المتسربة من الينبوع ، ولكنه يعني البحث عن ينبوع اعمق في اقصى حركة للمصير ، نحو الكشف عن ذاته .

لا شيء يمكن ان يحمي الفكـــر القومي من امراضه ، الا هذا التنبه الداخلي ، الذي يجعله مسلحا دائما بعدم القناعة بالنسبة لما هو موجود ، وبطموح واع نحو اقسى موقف نقدي ، من المنجزات ، في سبيل ما لم ينجز بعد. بذلك وحده ، نحرز ايضا هذا الفكر من تبعيته للاحداث اليومية التي تحتكرها الفعالية السيـــاسية المتناقضة . نحرره من هذه التبعية ولا نعزله عنها . لان هذا التحـرر يتضمن نوعا من المراقبة الدقيقة العالية ، من قبل هـذا الفكر على الواقع السياسي . بذلـك فحسب ، يمكن ان نقتل طابع الصدفةوالاستثمار الطارىء، ومحاولات النكوص والارتداد ، التي يفاجئنا بها طغيان اليوميات السياسية، وشحوب المبادىء الايديولوجية تلقاءها .

ان مستقبل الفكر القومي ، لا يعني خلق الفلسفـــات العقائدية ، او النماذج الحضارية . ان هذا المستقبل يمهد لنضج شروط كل فلسفة ، كل حضارة . هكذا فحسب، نضع تجربتنا الثورية في الدرجة القصوى من مطامحها ، وهي ان تكون ثورية دائمة ، لا على مستوى الاثارة السلبية ولكن على مستوى الشرط الانساني ، لكل عملية خلقذاتي لوجود الامة ، ووجود العصر الانساني من حولها .

ان الانتاج الثقافي للامة ، حسب مراحل نضجهـــا الحضاري ، لا يشف عن روحية هذه الامة فحسب، ولكنه ينقلب الى تربية وجدانية لها . وبهذا فان الثقافة ، عندما تحقق شرط هذا الالتحام الذاتي بروحية الامة ، تتطور الى معايير . ولكن هذه المعايير ، لا تقف عند حدود التقييم الاخلاقي ، بل انها تتوجه الى التقييم الكياني ، من حيث ان هذا الكيان الذي صنعته الثقافة لذاتية الامة ، يعبر عن وجودها السوي النموذجي ، او انه منحرف او مزيـف . ولذلك من التعسف ان نعتقد ان الفكر القومي ، هو اعداد العقيدة ، ذات النجوع العملي المباشر . لان العقيدة، في حد ذاتها ، ما ان تنقطع عن القدرة الابداعيـــة والنقدية للفكر ، حتى تفقد روحيتها الخاصة ، وتتحول الى آلية طقسية سحرية ، ككل العقائد البالية الاخرى .

ومن هنا فان خط المستقبل ، الذي سيحدد نضج الفكر القومي ، لا بد ان يتحد مع متعاظم في القدرة على كشف الذات العربية ، وعرض مختلف مظاهرهـا الجمـاعية والفردية ، السلوكية والاعتقادية ، على معايير الحضارة المقترحة لوجودنا القومي السوي . فان توجيه فعاليـة الفكر نحو بنيانه الذاتي ، هو الذي يكفل له ارضا خصبة من الفعالية والانتاج . فلقد سمحت لنا الاحداث السياسية دائما ، ان نغفل مواجهـــة الذات ، وان نقنع مشاكلنـا الاجتماعية ونوازعنا الانسانية، بتعبئة الجهود نحو الهدفية السياسية المباشرة . ولا ريب ، فان هذه الهدفية تقـــوم على مستوى مثالي شاهق بالنسبة لواقعنا اليومي. ولذلك ما ان تفرغ التعبئة الهجومية في المعارك السياسية ، او تمنى بشيء من النكوص والتردد ، حتى تتقلص ثوريتنا ، وتفترسها رواسب شخصيتنا القديمة، بعاداتها التشاؤمية، واعتقاداتها النكوصية التسليمية .

ان اعداد الاهداف الكبرى ، ليس هو الا الجزء الاضأل من نشاط الفكر القومي . بل يكاد يكون الفكر غائبا فـي هذه العملية ، بينما تنشط ردود الفعل الغريزية عوضـا عنه . واما المهمة الاخطر للفكر ، والتي لم نجرؤ بعـــد على طرحها مباشرة ، هي اعداد البنية الوجودية الحقيقية، التي تؤهل الاجيال الى تحقيق مثل هذه الاهداف الكبرى. فنحن استطعنا حتى اللحظة الحاضرة من تجربتنا القومية، ان نتقن فن التعبئة الجماهيرية ، وان نحذق في صياغة التظاهرات ، وما يحاك خلفها من حلزونيات سياسية ، ولكن فكرنا القومي لم يفعل شيئـــا بعد ، بالنسبة لاعداد البنية الحضارية للعربي الانسان . فما زال عقله يتعامل بثوابت القرون الوسطى ، وما زال سلوكه مضغوطا تحت كوابيس المحرمات ، وما زالت نفسيته تشكو من كل العلل التي يشكو منها انسان مذلول بروحيته ، مقهور برغباته، مشدود الى الاف الطقوس التي تجمد حريته ، وتجهض ثوريته .

ماذا فعل الفكر القومي بالنسبة لانسان المعمل والبيت والمكتب والشارع . لقد طرح عليه اهدافـا جماعية ، لا تواجه مشكلاته الفردية . وجعله لا يذكر هذه الاهداف الا ليشكو من تعثرها او استحالتها . كل ذلك لان المـد الانقلابي ، لم يلمس سوى سطح هذا الانسان ، ولم يصل الى امكـــان خلق عادة التحرر الذاتي ، والتخلق باخلاق طليعية ، في زوايا حياته الظاهرة والخافية .

ومهمة اخرى تنتظر نزالا وحشيا مع هذا الفكر القومي

العتيد . ان عليه ان يثقف مثاليته بالعلم . وأن يجعل من العلم اكثر من حقائق مجردة ، قد تمدنا بشهادات والقاب، ومناصب اجتماعية . فلقد اعتدنا ان نشكو من الجهل كظاهرة مسلم بها في مجتمعنا . ولكننا منذ ثلاثين سنة ونحن نخرج اجيالا من حملة الشهادات . فهل نقول انه قد اصبح لدينا عدد يكفي أن نفحص مستواه العلمي ، لكي نجد اننا ما زلنا عند حدود استعارة حضارات الاخرين من مستعملاتها الخارجية ، دون ان يكون لدينا ذلك الحس الايجابي المنظم الذي يجعلنا قادرين على الاختيار ، وقادرين بالتالي على تمثل ما نختار ، في سبيل تغذية شخصية خاصة بأبعائنا الجديد .

أن التناقضات اليومية بين مستويات الثقافة ، ونماذج السلوك ، بين الاعتقادات الغيبية واصطناع كافة مظاهر التحرر السطحي ، والتناقضات حتى بين أفراد الطليعة من كل جيل ، عندما يحلمون ، ولا يدرون كيف يحققون احلامهم .. كل هذا الواقع المليء بالصدفة والاتفاق واللامعقول ، كل هذه المظاهر الحلزونية للانسان العربي ، تجعلنا نؤمن ان الفكر القومي لم يلد بعد ، لان النقد ما زال امنية بدون جراة . ولان تعرية الذات وفضحها ، وتدمير طقوسها الانحلالية ، هي من اصعب الامور بالنسبة لمجتمع ، يفضل ان ينقل معركته الى خارج منه ، محار يأكل اعداءه الظاهرين مؤجلا دائما عدوه الذاتي ، الضامر في رواسب تكوينه الحضاري البائد . ان من اسهل الامور ان نفرغ طاقتنا السلبية ضد اعداء خارجيين ، ومن السهل ايضا ان ننصب هدف الوحدة ، ونتحاشى بناء عقلية الوحدة واشاعة اخلاق الوحدة .

ومن الهين اليسير كذلك ان نرفع لواء الاشتراكية والحرية ، وان نهرب من خلق البيئة الشعبية لتحقيق الاشتراكية ، ومن نسج نفسية التحرر وغرزها لدى كل فرد عربي ، سواء أصمه تظاهر في الشارع ، او عانقته احلامه بين اربعة جدران في غرفته ، او تعامل مع اب وام واخ وصديق وحبيب .

ان العقلية الانقلابية ، لا يمكن ان تنمو وتتحقق بالاثارات الحماسية . فلا بد لعقل صارم ، مسلح بالاعتقاد والمعرفة ، والرؤيا الشمولية ، كيما يهيىء ثانية عادة التخلق الحر لدى انساننا ، في كل مجالاته اليومية . فلنقل اذن ان ضمانة الانتصارات الكيانية لمجموع الامة ، في ميادين صداعها المختفلة ، لن يأتي من زرق الحماس الانفعالي بحقن خارجية . فالثورية السياسية ، ترتكز الى اخلاق ثورية ، والاخلاق الثورية تستمد فعاليتها من اصالة الفكر النقدي . وليس من فكر بقادر على نقد منجزات ذاته وذات غيره ، من دون ان يكون بنيانه نفسه قد صنعته الحرية الواقعية لبنة فلبنة .

اننا اخيرا بحاجة الى ان نواجه شرطنا الميتافيزيقي العميق . أن نفحص الكثير من اعتقاداتنا الغيبية ، التي قد تتخذ لنفسها كثيرا من الاقنعة الثورية . فتعمل على اجهاض كل مكتب ثوري ، واملاء مضمونه بذخر رجعي غيبي . ان الفكر القومي مدعو اخيرا ، الى ان يحل في نفوسنا دين التقدمية ، بدل الاعتقادات التي فقدت الهتها، وتحولت الى آليات طقسية وثنية .

فما هو مستقبل الفكر القومي اذن ، ان لم يكن هو نفسه اعدادا باطنيا وحشيا ، لقتل الوحش في صميم تكويننا التاريخي ، لقتل عادة المذلة امام المطلق ، والحاكم ، والحاجة انى ظهرت ، وكيفما تحققت .

هكذا نجتث من الصميم قابلية كل مذلة ذاتية او جماعية ، سرية او مفضوحة .

هكذا نمهد لتكوين الحضارة المقترحة ، بان نسلب عن انفسنا قناع الحضارة المهترئة القديمة ، ونجرد سلوكنا اليومي من عادة لصق اعلانات الحضارة المستوردة ، على جسدنا المهلهل .

قبل ان نرفع اى شعار فى المستقبل ، فلنعمل على خلق عقلية هذا الشعار ، وعلميته الواقعية ، لنجعله يحس بانه في ارضه ، وانه لدى الشعب الذي يستحقه.

* *

الفكر القومي لم يولد بعد ، ولكن ولدت النية العظيمة على تحقيقه ، فهل نحن جديرون بعبء هذه النية ، لنكون جديرين بمستقبل الحضارة العربية المنشودة ، في نفوسنا .

تلك هي صلاتنا الاخيرة ، في هيكل لا اوثان فيه ، ولا سماوات غامضة . هيكل تضج فيه ارادة الخلق والانبعاث وحدها . (*)

مطاع صفدي

(*) محاضرة القيت في النادي الثقافي العربي ببيروت